نظرات في شعر الأخرس (١)

الدكتورة عائدة الخزرجي

لقد كان شعر الأخرس موضع اهتمام النقد ومحل عنايته منذ أن عرف الشاعر وذاع شعره في الناس وحسبك أن تعلم أن صاحب « المسك الأذفر » العلامة الألوسي يرى فيه :

« النهاية في رقّة الشعر ولطافته وحلاوته وعذوبته »بل انه يمضي في اعجابه به الى أبعد من ذلك فيرى في الأخرس :

« خاتمة الشعراء ونهاية الأدباء جعل المعاني البيض عبيداً لسمر أقلامه وكان له في التغزل مجال أعجز فيه فحول الأدباء » (٢) .

ويعده جرجي زيدان « من نوابغ شعراء العصر » (٣)

ويرى فيه عباس العزاوي انه « مالك ناحية الأدب في الشعر والنثر » (٤)

ويعتبره الزركلي من « فحول المتأخرين » (٥)

أما استاذنا المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير فيرى فيه أنه :

« شاعر ظريف يشبه أبا نؤاس » (٦).

---

(١) عبد الغفار بن السيد عبد الواحد المولود بالموصل ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م والمتوفى بالبصرة ١٢٩٠-١٨٧٣

(٢) المسك الأذفر .

(٣) مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر : ٢٨٩

(٤) مجموعة عبد الغفار الأخرس ص : ٦

(٥) الاعلام ط٢ مجلد ٤ : ١٥٧ .

(٦) نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر .

ونحن نثبت هذه الآراء لندلل على ما أثاره هذه الشعر من عناية نقدةالأدب به وإن يكن لنا في بعضها نظر .

ولعلك سائل إيّاي بعد ذلك ماخصائص هذا الشعر الذي حظي من رجال الأدب هذه الحظوة وتبوأ من نَقدة البيان مكان الصدارة ؟ أتراه جديراً بها أم انها العاطفة والاندفاع في الثناء الى غير غاية ؟ .

وللجواب على ذلك نقول لك انه في بعض خصائص هذا الشعر مايدفع الناقد الى الوقوف عنده والاعجاب به والإكبار لصاحبه ، والحق ان الأخرس عندنا فجر النهضة في الشعر العراقي بعد ليل طويل من الركود عانى فيه الشعر ماعانى من التخبط في الضلال . . .

والأخرس عندنا في العراق كالبارودي في مصر : نهاية ظلام وبدء نور ، فهو جسر وطيد البناء قويّ الدعائم استمدّ أعمدته من التراث الأصيل في أزهى عصوره وأروع صوره بل هو همزة الوصل بين تالدنا المخلد وطريفنا المجدّد والشرارة الاولى لِوهَجَ النهضة الحديثة التي تمخضت فيما بعد عن عبد المحسن الكاظمي ومعروف الرصافي ومحمد رضا الشبيبي وسواهم من عمالقة الشعر العراقي الحديث .

واهم ما يمتاز به هذا الشعر في بعضه أنه بحتري الموسيقى وربما الديباجة ، فقد حفل بالمطابقات والمقابلات التي حفل بهما شعر البحتري من قبل ، الى جناس عذب مستملح ، وتقسيمات معجبة كتقسيمات إقليدس . . . وفي بعضه الآخر قد يسيطر الجو البدوي فاذا الوشائج قائمة بينه وبين الصحراء فانت تقرأ اثناء هذا الشعر « الوجيف » و « الذميل » و « النوق » و « العيس » بل انك لتشم من انفاسه « الشيح » و « الخزامى » و « الثمام » وهذا لعمري أثر صريح من آثار الشعر القديم في شعر شاعرنا الأخرس ، وقد نخرج من ذلك أن شعر الشاعر قد جمع بين الجزالة البدوية والرقة العباسية بل هو مزيج من هذا وذاك ولا عجب من بعد أن قال العلامة الألوسي في اسلوبه انه :

« النهاية في الرقة واللطافة والحلاوة والعذوبة » .

ولعل أشد ما يبهرك منه رقائق معانيه وحلاوة صوره في جمال تشبيهاته فقد استجمع الحسن من أطرافه وواتته الجزالة من مظانها .

ويبدو لي ان المثل الأعلى الذي اقتفى الأخرس أثره ووضعه أبداً نصب عينيه في متانة الديباجة وشدة الأسر هو الشريف الرضي ولا أحد سواه ولنا على ذلك الف دليل ودليل نواتيك بها إن شئت جميعاً بعد قليل .

أما رقائق معانيه وحلاوة تشبيهاته فحدث عنها ولاحرج ، إلا انها لا تخرج في مجموعها عن كونها ترداداً لمأثورماورد منها في تأريخ شعرنا العربيّ على توالي عصوره

والديوان الضخم يزخر بها من الفه الى يائه ويكون بذلك الأخرس سلفي الروح والصور ، هذا الى رصانة وإحكام في قوافيه بارعين يدفعانك الى الاعجاب والدهشة ويذكر انك بتلميذه الاول شاعرنا الكبير معروف الرصافي ، ولاتعجبن من بعد لشاعر دانت له القوافي وطاوعه البيان أن يكون طويل النفس مكثراً في قول الشعر إكثاراً دفعه الى الزهد به وعدم العناية بجمعه ولولا ان قيض الله لهذا الشعر من يعنى به (١) بعد موت صاحبه لما كان للأخرس ديوان بين الشعراء ولخسر الشعر العراقي بذلك كنزاً من كنوزه !

وقد كان من جراء إكثار الأخرس وطول نَفَسه تكرار للمعاني أو إسفاف في بعضها وهذه نتيجة حتمية لشاعر ربما بلغت بعض قصائده المئتي بيت كمقصورته في مدح محمود الآلوسي إذ لم تخل هذه القصيدة من نثرية مستهجنة ورتابة مملة وهي بطولها تذكرنا بتائية ابن الفارض الكبرى ، ومن نثريته النابية في قصيدته هذه قوله :

فسعّرتْ من حرّ أنفاسي بهـا لظىً أذاب حرُّه شَحْمَ الكلى

(١) جمع الديوان بعد وفاة الشاعر احمد عزة الفاروقي وسماه الطراز الانفس في شعر الاخرس وطبعه بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٤-١٨٨٦ باستانبول وقد عثر المرحوم عباس العزاوي على قصائد عديدة وقطع مهمة فاتت جامع الديوان . انظر مجموعة الأخرس للعزاوي ص ٦ .

وقوله :

لما عليه عُرضتْ أسئلةٌ وَرَدُّها الى معاليه أتى

ليستفيد الناس من علومه ويهتدى فيه وفيه يُقتدى

ومن هنا كان التفاوت بيننا في شعر الأخرس ، فبينا هو يعلو في كلامه عُلوّا يجعلنا نؤمن ايمانا لايقبل الشكّ بتلمذته على الشريف الرضيّ وفصحاء البدو في متانة الديباجة وشدة الأسر وبتلمذته على أبي عبادة البحتري في روعة الموسيقى وسحر الجرس إذا به يسفّ اسفافاً يدنيه من النثرية بل العامية المسترذلة أو يكاد . .

والأخرس كالبارودي تماماً : مرآة صافية يتراءى فيها أثر الشعر العربي الاصيل من جميع جهاتها فبينا تقرأ فيها أثر الحطيئة (١) وربما جرير (٢) اذا بك تلحظ

---

(١) الأخرس :

دامي العيون على أُصيبية سود الحظوظ وأوجهٍ غُر

ويخاطب زوجه :

وبنوك يومئذ بمسغبة خُمص البطون حواني الظهر

صُفْرٌ يسوؤك ما عرفت بهم من شؤم وقع حوادث غُبر

إن هذه الأبيات تذكر بابيات الحطيئة المشهورة في استعطاف الخليفة عمر (رض) :

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ زغب الحواصل لاماء ولا شجر

(٢) الاخرس د : ٧٦

لدى قوم أعزّ الناس جارا واندى بالنوال بطون راح

وجرير صاحب البيت المشهور في المدح

الستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح

الأخرس :

وصرت في حال من لايبتغي بدلا بالاهل اهلا وبالجيران جيرانا

يذكر بقصيدة جرير المشهورة :

يا أمَّ عثمان إنَّ الحب عن عرَض يُصبي الحليم ويُبكي العين أحيانا

روح أبي نؤاس (١) وربما لحظت في هذا الشعر اثراً للمعري (٢)
وربما لابي الطيب وقد يكون اثر هذين الاخيرين اقل من غيرهما مدىوأدنى مرتبة :

إلاّ ان المثل الاعلى للشاعر الذي اقتفاه وحاول ان يترسم خطاه هو الشريف

(١) الأخرس في ظرفه وخمرياته ومجاهرته بالعبث يذكر بأبي نواس :

تطوف علينا الكاس من كف اغيد ... كما ذر قرن الناس في راحة البدر
تحدثنا عن نار كسرى لعهده ... قديمة عهد بالمعاصير بالعصر
فحيّا بها أحوى من الغيد أبلج ... مذاباً من الياقوت تبسم عن در
وقلت لساقيها رويدك بالحشا ... فقد زدتني بالراح سكراً على سكر
هنالك اعطينا الخلاعة حقها ... وقمنا الى اللذات نعثر بالسكر
الى ان بدا للصبح خفق بنوده ... وطار غراب الليل عن بيضة الفجر

وغير هذا كثير في ديوان الرجل نخص بالذكر منه صدر مدحته لسليمان افندي: ٤٣وصدر مدحته لنقيب البصرة محمد سعيد: ٦١أما ظرفه النواسي فلاافصح من هذه الابيات في ترجمتها إذ كتب الى بعض احبابه يطلب منه صراحيةشراب :

جميل الصنيع بأهل الادب ... بقيت لنا في الهنا والطرب
اعندك علم بان الهموم ... على خاطر المرء مثل الجرب
ولا من دواء لأدوائها ... ولا برء منها كبنت العنب
واني فقير الى قهوة ... ومَنْ لي بها مثل ذوب الذهب
تقوّي العظام وتشفي السقام ... وتذهب عن شاربيها النصب
صراحيتي ما بها قطرة ... فقل عند ذلك يا للعجب
وانت ملكت نصاب الشراب ... فأين الزكاة وهذا رجب ؟!

(٢) الأخرس : ٣٠٠

عفت ارسم من دار ميّ واطلالُ ... وحالت، بهاإذ خفَّ قاطنها، الحالُ

المعري :

مغاني اللوى من شخصك اليوم اطلال
وفي النوم مغنى من خيالك محلال

الرضي قطعاً دون سواه في شرف المعنى وأسر الديباجة والبحتري في حلاوة الموسيقى وجرس القوافي وخفة الأوزان فهو إذن عندنا « رضي » الديباجة « بحتري » النغم ...

* * *

و كما كانت قراءات الشاعر في التراث العربي الشعري ذات أثر بيّن في ديوانه كذلك كان للقرآن الكريم أثر ملحوظ في شعره فهو يُحَلّي قصائده بين الفنية والفنية بالجمل القرآنية ليزيدها الاقتباس الى جمالها جلاله . . .

وانك مـــا تختار غير رضـــائه كمن راح يختار الضلال على الهدى

. . .

سعى الى الفضل فنال ما ابتغى وليس لـــلانسان إلا مـــا سعى

. . .

اقسم بالـــربِّ العظيـــم شانه ومن على العرش تجـــــلىّ واستوى

وكما حلىّ الشاعر بالجمل القرآنية بعض شعره فقد حلىّ بالامثال العربية بعضه الآخر :

مقالة المنصف فيـــك جهـــرة لاشك كل الصيد في جوف الفـــرا

. . .

ولما رأيت الهم جاز بي المـــدى الى ان رأيت السيل قد بلغ الـــزبى

. . .

يُهَوَّن لدغ العقربان بلدغـــه ولاشك بعض الشر اهون من بعض

. . .

فلما أجلتُ الطرف ادميت خده وأدمى فؤادي والجـــروح قصاص

أما التقسيم والمطابقة والمقابلة والجناس ورد الصدر على العجز وما اليها من أسباب البديع فهي أدواته الأخرى في توشية شعره وتفويف أثوابه وهي منبثة خلال الديوان لاتكاد تخلو منها قصيدة . . .

تقسيم : بحيث الهوى غضّ ، وبرد شبابنا قشيب ، وعهد اللهو في زمن الصبا

طباق : فطوراً أراني في المشارق متهماً وطوراً أراني في المغارب منجدا

طباق : اذا زفها الساقي لِشَرْبٍ تبسمت بـــه طربا حتى يعود مقطبا

جناس : كانت صليلا في الوغى وصهيلا

رد الصدر على العجز :

لعبتمُ فأرحتم بعدها أممـــاً كم راحـــة يجتنيها المرء من تعـــب

ولك الآن أن تطالبني الدليل على صحة دعواي من أن الشريف الرضي كان قبلة الشاعر ووجهة نظره أنى سار واذكر انني قلت لك اول الحديث إن لنا الف دليل ودليل على صحة دعوانا هذه وها كها الآن نسوقها لك دليلا دليلا :

اقرأ أولا همزيته في رثاء محمد جلبي زهير (١٦—١٨) التي اولها :

نؤمل ان يطـــول بنـــا الثـــواء ونطمـــع بالبقـــاء ولا بقـــــاء

تر الشريف الرضي مجسداً في هيكله وروحه خلل هذه الهمزية ثم اقرأ مقطوعة الأخرس البائية التي اولها : ٤٧

أحبتنا انتم على السخط والرضا وفي القلب منكم لوعة ووجيب

واقرأ بعد ذلك بائية الشريف التي أولها (١٤١)

يقر بعيني ان ارى لك منزلا بنعمان يزكو تربه ويطيـــــب

ثم تقدم بعد ذلك قليلا في ديوان الأخرس وقف عن بائية اخرى : ٥٢ :

ويوم وقفنا دون اسنمة النقا وقد كان يوم ياهُذَيم عصيبـــــا
على طلل ظام الى ريّ أهلـــه تصب عليه الماقيان ذنـــــوبا
ولما تلفتنا فلـــم نـــر أنجمـــا هنالك إلا قد غـــربن غـــروبا
وكل فؤاد من رفاقي وانيقي تطالب من تلك الـــرسوم حبيبا
وقد رد طرف الركب بعد طموحه حسيرا وقلب المغـــــرمين كئيبا
شققن عليهـــن القلـــوب تأسفا إذا ماشققن الثاكـــلات جيوبـــا
وقد اخذت منا الديار نصيبها من الدمـــع والجفن القريـــح نصيبا
وحنّت نياق الركب حتى وجدتني وجدت لها تحت الضلوع لهيبا
ولم أدر يوم الجزع في ذلك الحمى فقدن حبيبا ام فقدن قلوبا

تلحظ في هذه المقطوعة اثراً من اثار الشريف يبدو في النفس تارة وفي الألفاظ واسماء المواضع أخرى :

« حنت نياق »

« يوم الجزع »

« اسنمة النقا »

ثم تقدم معي خطوة اخرى في الصفحة ٧٣ من الديوان تطالعك الحائية

نبهت الـــورقاء ذات الجنـــاح من غفلة الصحو الى شرب راح

فتقفز في الحال امام ناظريك حائية الشريف :

نبهتهم مثل عـــوالي الـــرماح الى الوغى قبل بزوغ الصبـــاح (١)

وربما نقل التلميذ عن الأستاذ لفظة لفظة وما يدري . . . !

انه الاعجاب والتتلمذ على استاذ تنقل عنه وما بك ذلك . . .

يقول الأخرس :

قد كان يرجو ان يلم ببـــرئه لو ان طيفك كان من عـُوّاده

والشريف يقول :

اهونْ بما حملتنيه من الضنـــى لو ان طيفك كان من عـُوّادي

ويقول الأخرس :

وعجنـــا العيس عـــن نجد حثيثا وَخـَلّفـْنا وراء العيس نجـــدا

ويقول الشريف :

وعجنا العيس توسعنا حنينـــا تغنينا ونوسعـــها بكـــاء

وقد تجاوز الأخرس تقليد استاذه في الديباجة واللفظ الى اصطناع بعض اغراضه كالغزل العذري مقتفياً اثر الحجازيات .

اقرأ كذلك الرائية التي اولها :

رمى ولم يرم عن قوس ولا وتر بما بعينيـــه من غنـــج ومن حور

ص ٢١٣ فهي نفحة أخرى من نفحات الشريف

في الروح واللفظ وحتى المواضع . . . ! كمنى والمحصب والخيف

يقول الاخرس :

تهيم بأعلام المحصب من منى وآفة نفس المستهـــام هـــواهـــا

وتقدم بعد ذلك معي في الديوان لتقرأ على الصفحة ١١٠ منه القصيدة التي اولها :

لمن أنيق ياسعد ترقل أو تخدي تغورّ في غور وتنجد في نجـــد

حوانٍ كأمثال القسيّ سهامها اعاريب ترمي بالسرى غرض القصد

وامضِ بها حتى تاتي على نسيبها كله واقرأها مستأنياً متمهلاً ثم قف بعد ذلك لتقرر معي انها امتداد للحجازيات في الروح والنَفَس واللغة جميعاً .

وهكذا تقف بين الفنية والفنية—على رَوْح من انفاس «الشريف» تنفح به قصائد الاخرس خلل ديوانه ، والامر كذلك في الديباجة والوشي البحتريين يطالعانك من حين لحين حتى انه ليخيلّ اليك أن البحتري قد بعث من جديد اثناء ماتقرأ للاخرس من روائع الشعر :

الأخرس : زيد لوماً فزاد في الحب وجدا

البحتري : لي حبيبٌ قد لج في الهجر جدا

القصيدتان من منبع واحد . . .

ثم اقرأ للاخرس :

أتذكر اطلالا تعفّت وأرسمـــا بذات الغضا في الجزع من أيمن الحمى

تجد أنها بحترّية الوشي والنَفَس .

وموسيقى الأخرس ، إذ يشاء ، خفيفة طروب فيها انتقاء للبحر والقافية واللفظ توائم الغرض الذي سيقت من أجله . اقرأ قصيدته في التهنئة التي اولها :

أعِدِ اللهو فانّ العــودَ أحمدْ وأدِرَها في لُجينِ الكأسِ عَسْجَدْ

وسواها كثير ، تجدها كلّها شواهد صدق على مانقول لك من أمر موسيقاه وهكذا جمع الأخرس بين نسج الشريف ووشي الوليد فضمن لشعره النفاسة من اطرافها جميعاً لولا انه فوّت على نفسه فرصة الاستقلال والخروج على الناس بما فيه ابداع وجدة وابتعاد عن سمة الاقتفاء والتقليد أيا كانت درجة هذا الاقتفاء من الروعة والسمو . . .

ولعل أشدّ مايبهرك في الأخرس رقائق معانيه وحلاوة تشبيهاته ولعلهما كانا اهم اسباب شهرته ونجاحه في التغلغل الى نفوس ممدوحيه على اختلاف طبقاتهم الفكرية والاجتماعية ، ولعمري أي رقة هذه التي تملي على الشاعر مثل هذا البيت في وصف كريم ؟

ويميل من كرم الطبــاع كأنما شربت شمائلــه المــدام شمولا

اوقوله :

رقت شمائلــك اللائي ترق لنا حتى كأنك مخلوق نسيم صبــا

أو قــوله :

كريم فأما العيش في مثل ظله فرغــد وأما ظلــه فظليل

أويصف لك مابه والمطايا من لهفة الشوق فيبدع اذ يقول :

حكتْ بلسان الحال حتى وددتني اقبّــل من تلك المطية فاهــا
جوى مثل مابي اويزيد بزعمها وهيهات مني وجدها وعناهــا
وسار بها إذ ذاك في كل مهمــه وليس الى غير العلاء سراهــا
وما راح الاوهو فيها سميرهــا شكته تباريح الجوى وشكاهــا
فقلت لهــا لا فاتك الورد صافياً ولا حبست منك السماء حياهــا

وما تراك تقول في مثل هذه الدرر في مدح ابي الثناء الآلوسي ؟

وأبلج لولا شعره وجبينــه لما كنت ادرى ما الضلال ولا الهدى
تدين قلوب العاشقين لحكمه على انه قد جار في الحكم واعتدى
فتى المجد يُفني بالمكارم ما له ويبقى له الذكرُ الجميلُ مُخلّدا
اذا فاض منه صدره ويمينــه فخذ من كلا البحرين درّاً منضدا
وما زال يسمو رفعة وتفضــلا ويجمع شمل الفضل حتى تفردا
ايطلب إلا من مفاخرك العــلى ويسأل إلا من اناملك النــدى ؟
لك العز حار الواصفون بوصفه وجلت معاني ذاتها ان تحــددا
اذا ما تجلت منك أدنى بلاغة تخرّ لك الأقلام في الطرس سجّدا
وفيك الندى والفضل قرت عيونه ولم يكتحل إلا بخطك إثمــدا (١)

وما تراك قائلا في مثل هذه الصور التي يستخدمها الاخرس في تمجيد ممدوحيه :

من كل ابلج يزهو بهجة وسنا تخاله بضياء الصبــح منتقبــا
قد انفقوا في سبيل الله ماملكوا واستسهلوا في طلاب العز ما صعبــا

وقوله :

غرست ايديهم غــرس الندى فاجتنت من ثمر الشكر لبابــا
سحبت ذيــل افتخــار أمــة لبسوا التقــوى برودا وثيــابا

(١) اقرأ قصيدة البحتري التي أولها : اجرني من الواشي الذي جار واعتدى
تجد ان النفس واحد في كلتا القصيدتين .

وأعـــدوا للعـــلى سمر القنـــا والرقاق البيـــض والخيـــل العرابا
ينزل الـــوحي على أبياتهـــم فاسأل الآيات عنهـــم والكتابا

ولو مضيت في الاستشهاد بروائعه لضاقت بنا الصفحات ولضللنا القصد فلنجتزئ بما ذكرت ولنذكرن انها من بحره قطرة وفي ذخائره دُرّة . . .

ولا تحسبن وقد جلونا لك من محاسن الشاعر ماجلونا اننا ممّن يتعصب له أو يبلغ به الاعجاب حداً يحيد به عن القصد . . . فان لنا مانؤاخذ به الشاعر ونحسبه عليه وإن كنا ممن يعسر عليهم كل العسر ذكر الهنات وتقصي السقطات ولعمري فقد قيل من قديم إنّ لكل جواد كبوة ولكل حدّ نبوة .

ان اهم مايؤاخذ به الشاعر كونه اميل الى التقليد منه الى الابداع وهو مأخذ خطير يدور عليه جوهر شعره .

فالأخرس تقليدي في اغراضه وصوره لايكاد يخرج عن الاطار القديم قيد أنملة على الرغم من ان اطاره هذا في الأغلب الأعمّ اطار بالغ من الروعة منتهاها ومن الجمال غايته لانه اطار جمع بين الرضي والبحتري في وقت معا . . . !

ولنا أن نذكر بعد ذلك ان الشاعر كان ممن قد احترف الشعر وسخره أداة للعيش فكان شاعر مدح ،ومعنى ذلك ان الصنعة والافتعال سيطرتا على هذا الغرض من شعره فافقدتاه روح الشعر فكان لفظا مصنوعاً لاشعراً مطبوعاً . . . وقد تضطره حرفته الى الاغراق في المبالغة لاسترضاء واستمالة ممدوحيه مبالغة ربما خرجت به عن حدود المعقول أوتخطت به حدود الايمان الى الكفر . . . !

قسماً بمجدك وهو اعظم مقسم يستخدم التعظيم والتبجيـــلا
لو كنت في الامم المواضي لم تكن الا نبيا فيهـــم ورســـولا

أو :

لقد جمع الله المحاسن كلها به فهو من بيـــن العـــوالم مفرد
تفرد من بين الـــورى بجميلـــه فما شك في توحيده اليوم ملحـــد

أو :

لم يلـــد مثل ابيهم والـــد لم يلـــد قبل ولا من بعد يولد

وربما اخرجته حرفته هذه عن حد احترام نفسه الى امتهانها واهدار كرامتها

فتراه يقول لممدوحيه :

فداؤك عبد انت مالك رقّـه بأيدي كريم يستفاض نـداها
فشكراً لما أوليت من نعمة بهـا توليت مالا من نداك وجـاها

ونحن نستثني من شعر المديح هذا مدائحه الصادرة عن عاطفة حقيقيّة ونخرجها بذلك من باب المديح الى باب الاخوانيات وهو باب جميل من ابواب الشعر لانه يعكس مدى علاقة الشاعر باخوانه وقد جوّد الشاعر في هذا الباب وبلغ فيه الغاية ، فقد كان الشاعر ودودا لاخوانه وصولا لهم وفياً باقياً على العهد رغم اختلاف الزمان وتنكر الأيام . . . ولعل عينيته العصماء (١) التي بعث بها الى الوالي داود باشا بعد نكبته وعزله أعلى شاهد وأجل دليل على وفاء الشاعر وهي تذكرني بموقف البحتري من المتوكل على الله بعد مقتله ورثائه اياه برائيته العصماء آية الآيات في الوفاء . . .

ان مدائح الأخرس احتلت الجانب الاكبر من ديوانه لانها كانت مصدر عيشه.

وهناك مدح روحاني للاخرس بلغ به الغاية فقد مدح الشيخ عبد القادر الكيلاني ببائية رائعة تفيض تُقىً وتنقلك الى الاجواء الروحانيـة التي تهيمن في اثنائها . . .

فيا آل بيت الوحي دعـوة ضارع الى الله يدعو ربه ويجـاب
مـواردكم للحـائمين كأنها مـوارد من قطر الغمام عـذاب
وهل يبتغي الظمآن من غير فضلكم ورودا وماء الباخلين سـراب
نعفّر منـا اوجهاً في صعيدكم عليهن من صبغ المشيـب نقاب
فلا دونكم للقاصدين مقاصـد ولا بعدكم للطـالبين طـلاب
مفاتيح للجـدوى مصابيح للهدى فايديكم في العالميـن رغـاب
بكم يـرزق الله العبـاد وفيكم ينزّل مـن رب السماء كتاب

(١) عينية الأخرس هذه من عيون الشعر اولها :

بـوادي الغضـا للمـالكية اربع سقتها الحيـا منا جفون وادمـع

وأما رائية البحتري فاولها :

محل على القاطول اخلق داثره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

وانتم لنا في هـذا الدار رحمة اذا مسّنا فيها اذى وعـذاب
ومـن بعد هذا انتم شفعاؤنـا اذا كانت الأخرى وحان حسـاب

وللشاعر اغراض أخرى لعل أهمها تلك التي تصف مجالس اللهو والانس حيث تصطفق الكؤوس وتدور بها الندمان. وللشاعر خمريات وغلمانيات تذكر بأبي نواس وهي التي حدت بالدكتور البصير ان يطلق على الشاعر لقب ابي نواس القرن التاسع عشر لما فيها من صراحة في التحدث عن ساعات اللهو هذه حيث يُخلع العذار ويُخرج عن الوقار ، والشاعر محسن في وصف هـذه المجالس إحسانا كبيرا وهو محُسن كذلك في وصف مظاهر الطبيعة من حولها . . .

وتبرز الشكوى كغرض من اغراض الشاعر وشكواه مريرة عند تُذكرنا بشكوى استاذه الرضيّ لانها مثلها في المرارة والعمق :

ووجدي على هذا الزمان سفاهة وعتبي على القوم اللئام سَفاهـا
ولو كانت الايام تعقل ما أتت إذاً لنَهاهـا عقلها ونُهـاها
اليك ابا محمـود اشكـو حـوادثا كثيرٌ عـلى الحُرّ الكـريم أذاها
أُمنّي بها النفسَ الامانيَ ضَلّةً وتمنعني من عودهـا وجناهـا
وتلسعني فيهـا أفـاعٍ قـوارع ومـا عرف الراقون كيف رُقـاها
ارى هذه الدنيا لمن ذلّ اصبحت ذلولا وإن كـان الأبي أبـاهـا
تسنمها من كان مـن دون حقها وكنا نـراه تحتهـا فعـلاها
ومـا بحت بالشكوى وفي بقية من الصبر الاّ وانتهت وتناهـى

ويقول :

أسفاً على أيام عمر تنقصـي كدراً وتذهب بالمنـى تأميـلا
وبنات أفكـارٍ لنا عـربيةٍ لا يرتضين سوى الكـرام بعـولا
واذا نَهضت الىّ التي انا طـالبٌ في الـدهر اقعدني الـزمان خمولا
لا تعذليني ياميم عـلى النوى فلقد عزمت عـن العـراق رحيلا
وتقاصرت هممُ الرجال وأصبحت فيهم رياضٌ الآملين محـولا
تأبى المـروءة أن أراني واقفـا في مـوقف يدع العزيز ذليـلا
صبراً عـلى هـذا الـزمان فانه زمن يُعَدُّ الفضل فيـه فضولا

وقد تتمخض هذه الشكوى المريرة عن افتخار بالنفس او نقد لاذع لرجال الحكم .

ومن افتخار الشاعر بنفسه قوله :

لئن جهلتْ قدري اناسٌ فانني من الجهل مني أن اعرّفها قدري
وكيف مقامي بين شر عصابة تساوت لديهم قيمة الصفر والتبر
واني لمجبول على الخير شيمة ولكنني قد ادفع الشر بالشر

وقال يصف كرامته وحسن صبره وأحسن :

تناولَ افنانَ الخصاصة وارتدى بفاضل ذيل الفخر يُسْحَبُ طِمْرُهُ
جليدٌ على عسر الزمان ويسره وما ضَرّه عسرُ الزمان ويُسْرُهُ
فلا البؤس والاقلال مما يسوؤه وليس ثراء المال مما يَسُرُّهُ

ولم يتحرج الشاعر ان ينقد رجال الحكم بمثل هذا :

بلد كبار ملوكه بقر (١) صاروا ولاة النهي والامر

أو بقوله :

معذبتي من غير جرم يلومها وأعذب شيئ في هواك أمرُّه
أرابك مني أن أقمت بموطن تجوع ضواريه وتشبع حُمْرُهُ ؟

ولا ننسى قبل اختتام كلمتنا في شعر الأخرس ان نلحظ عليه تكراره معانيه ونثريته بالاضافة الى وجود صور ومواضع قديمة وردت في الشعر العربي القديم الى اسماء عرائس الشعر المتداولة منبثة خلل الديوان وكلها شواهد اتباع وتقليد . . .

هذا الى كون الديوان لم يخل من اخطاء نحوية ولغوية وعروضية (٢) كما لم يتنزه الديوان من بذاءة وفحش نصون قدسية البحث عن الاتيان بها (انظر ديوان الاخرس ص ٢١) .

وقد عجّ ديوان الأخرس ، اسوة بروح عصره ، بالتأريخ الشعري والتشطير والتخميس وشعر المجاراة وهذه اغراض أنأى ما تكون عن روح الشعر فهي نظم صراح وفيها ما فيها من تبذير للملكة الشعرية واهدار لكرامتها . . .

---

(١) يقول البحتري : علي نحت القوافي من مقاطعها وما علي اذا لم تفهم البقر
(٢) نحوية د٠ص ٢١٠ — لغوية د٠ص ٤٠، ٤٣، ٤٤ عروضية ١٤، ١٥، ١٨ (زحاف)

هذه نظرات عنّت لي وأنا أجوس خلال ديوان الأخرس فأقرر بعدها بلا تردد ان عبد الغفار الاخرس نقطة مضيئة في تأريخ شعرنا الحديث وانه بداية لنهضة وجسر يشد طريقنا المجدد الى التليد المُخلّد .

والأخرس قطعاً « بارودي » العراق إذا صحت المقارنة وأصاب القياس .

« من بعض شعر الأخرس غير المنشور »

جاء في مخطوطة المجمع العلمي العراقي ٦١٤ ــ ق٢/م على الورقة ٤٥٣ظ هذه القصيدة ممهداً لها بما يلي :

وقال مؤرخاً ولادة ناصر بن قاسم باشا زهير باليمن والخير : (الكامل)

بشرى بمــولد نجلكم من مولدٍ ... من صُلْبِ أكرم ماجدٍ ومُجَدّد
كالسيف أُصلت نصلُهُ من غمده ... فبدا نظَير الكوكب المتــوقد
يُحيي مناقب من مضى من أهله ... من ناصرٍ حزبَ العلى ومــؤيدِ
العاطسين بأنف كل أبيّــة ... والمرعفين بها أنوف الحُسّــدِ
والباسطين على العُفــاة أيادياً ... كم من يــدٍ بيضاء تُولى من يد
لاتُنكر الاعداءُ معروفاً لهم ... بمكارم لأكــارم لم تجحــد
حَدِّثْ ولا حَرَجٌ عليك بذكرهم ... وأعدْ حديثك ما استطعت وردِّد
فليهنكمْ ولَد بــدا وبوجهه ... سيماءُ سعد في الــزمان الأسعد
فالله يحفظــه ويرفــع قدره ... ويُديمه في طيب عيش أرغــد
سُرَّت به النجباءُ وافتخرتْ به ... لازال في فخر عظيــم السؤدد
قد جاء تاريخي وقرَّ عيــونهم ... بالناصر بن القاسم بــن محمــد

١٢٨٩ هـ

ط٤٥٣ : واتفق سنة مائتين وثلاثة (كذا) وسبعين بعد الألف أن اظلمّت الدنيا في بغداد وذلك في اخريات النهار برمضان بصورة مخوفة فقال مؤرخاً : (الرجز)

غُبِّرَ وجهُ الجوِّ في حُمرةٍ ... كأنما تُوقَدُ بالجــوِّ نــــارْ
واعقبتــها ظلمــة ايقنت ... انفسنا من أجلهــا بالبوار
حتى عن الشمس وأضــوائها ... بذلك التاريــخ حــال الغبــار

جاء في مجلة المشرق مجلد١١ص ٧٧٩: « ومما لم نجده في ديوانه تخميس لأبيات قالها عبد الباقي العمري : في قاض جائر . . . » (الطويل)

الا قطع الرحمنُ كلَّ مقاطعٍ مُضرٍ بما يقضي به غيـر نافع
وراضٍ بظلم طامعٍ غير نافعٍ وقاضٍ بجورٍ مـاله من مضارع
على انه بالعَسْفِ أقطع من ماضٍ

فكم قد جنى في حكمه من جنايةٍ وقد راح في غيٍّ له وغَـوايةٍ
فلا رُدّ قاضٍ إهتدى لهدايةٍ قضى ومضى لكن الى كل غايةٍ
من الخزي لايحظى بها أبداً قاض

بلينا بقاضٍ جائرٍ غير عادلٍ يجور بحكمٍ قاصرٍ غير طائـل
ومن اعظم البلوى بـلاءٌ بجاهلٍ يقولون يقضي قلت لكنْ بباطـل
وقالوا يقص الحق قلت بمقـراضِ

وجاء في مخطوطة المجموع العلمي العراقي المشار اليها اول الزيادات : (الخفيف)

أتُرى في الـوجود مثلك عالمْ ؟ يردُ الناسُ بحَـره المتـلاطِمْ
أنتَ من أشـرف العوالم ذاتاً إنمـا هـذه الرجـال عـوالمْ
أظهـر اللهُ فيك للناس سرّاً ما لـذاك السرِّ الربوبيِّ كاتمْ
ولك اللهُ مـابرِحتَ صراطـاً مستقيماً وعـارضـاً متـراكم
كل ظامي على منـاهل ماأُوتيت من فضـل ربـكَ حـايمْ
تتلقى الافهـامُ منك وما تنطق إلا بالحـق والحـقُ ناجـمْ
كلماتٌ كـأنهـنَّ سيوف أينِ من لفظك السيوف الصوارم !
ياقِوامَ الدين الحنيف (١) والدينُ لَعَمْري بمثل ذاتك قـايم
إنما أنتَ رحمةُ الله فـي الارض على أمـة لها الله راحمْ
أنت للحـق واليقين صباح راح يجلو لَيلاً من الشك فاحـم
شهد اللهُ إنهـا معجـزاتٌ لم تُسَلِّمْ بالحـق من لايسالم
حُجَجٌ تفحم المجـادل بالباطل والجـاحدَ الألـدَّ المخاصِمْ
وِضعتْ للورى مـوازينُ بالقسـ ط وفيها لازال دفعُ المظـالم
طاولـت هـذه السماء بأيدٍ قصَّرتْ دونهـا يدا كلِّ ظالم

(١) كذا جاء في المخطوطة ولا يستقيم بها الوزن ولعل الصواب الحنيفي ، كما يرى الخطاط وليد الاعظمي و نرى

قد رأينا ولياليِ صروفٌ ... قطّبتْ وجهها وثغرك باسمْ
لاتُبالي إذا حكمتَ بامر الله ... والعدلُ بالذي انت حاكم
آمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر ... آتٍ بالحقّ ماضي العزايم
واذا ما أمرتَ لله أمراً ... لستَ تخشى في الله لومة لايم
لك جِدُّ الكلام والكِلمُ الطيبُ ... يُؤتي كلَّ امرئٍ ما يلايم
نبهّتْ من أردتَ من سِنَةِ الغفلة ... فاستقيظ الذي كان نايم
رجع المجرم الذي اقترف الذنبَ ... مُنيباً فيها واصبح نادمْ
أعربتْ عن بلاغةٍ لك أفـ ... ـلامٌ فِصاحُ الإعراب وهي اعاجم
غردّت ماجرتْ بايديك في ... الطرس شبيها تغريدها بالحمايم
نافثاتٌ وهي الجداول للفضل ... بقلب العِدى سمومَ الأراقمْ
إتبعنا بالحق ملّة ابراهيم ... حنيفاً والحقُّ بالحقِّ قايم
واتخذناهُ قبلةً وإماما ... ومُشيِّدَ البيتِ الرفيع الدعائمْ
أنتَ لاغيرُكَ الإمامُ لقومٍ ... سلكوا في الندى سبيلَ المكارم
نشروا ذكر ماطوته الليالي ... قبل هذا من عهد كعبٍ وحاتمْ
كتبوا فوق جَبْهةِ الدهر أنّ ... الدهر عبدٌ لهم رقيق وخادم
زهدوا في الدنى فما راقهم فيها ... نفيسٌ من الغنى والغنائم
درَّ درُّ النّدى أعاد اكفّا ... من أناسٍ اعداؤهن الدراهم
بأبي سادة الأنام جميعاً ... وهُداةُ الأنام ابناءُ هاشِمْ
من ليوثٍ ضراغمٍ وغيوث ... وبحورٍ سواهم وخضارمْ
قال منهم للمكرماتِ قؤولٌ ... هكذا هكذا تكون المكارمُ
يتعدى جميلُ فعلهمُ الناسَ ... وانْ كان ذلك الفعلُ لازِمْ
طهر اللهُ ذاتهم واصطفاهم ... قبل ما يُنتَجون من صُلْبِ آدمْ
دايم الفَخْر خالدُ الذكر ماغير ... فخار لكم مدى الدهر دايمْ
وَاردٌ شِرْعةَ العلوم التي ... ليس عليها إذا وردتَ مُزاحِمْ
لم يَنلْها سواك نعمةَ مولى ... انت منها تحِلُّ طَوْق النعايمْ

طالما حثحث النياقَ حثيثاً ... راغبٌ في بديع فضلك هايم
قد وفدنا على كريم اذا استجدي ... جادت يمينهُ بالكرايمْ
ووقفنا بموقف العلم والتدريس ... والفضل والندى والمكارمْ
وشهدنا معالمِ المجد فيها ... قد تعالَتْ فيالها من معالم !
ثم شِمنا برقَ المكارم قد ... لاح سناه من بين تلك المباسم
ولثمنا يدي عظيمٍ قريب ... من عظيم تعدُّهُ للعظايمْ
كشفت غُمَّةَ النوايب عنا ... ثم نابت انا منابَ الغمايمْ
لم تزلْ تُتْبِعُ الجميلَ جميلاً ... فهي إذ ذاك ساجمٌ إثر ساجمْ
هذه سيدي عريضةُ داعيك ... وكانت عن الوداد تراجمْ
كلما اثبتت مديحك فيها ... كان اثباتُها لمحو المآثمْ
أطلبُ العفوَ في مديحك ... والغفران والصفحَ عن جميع الجرايم
فتقبّلْ مني ومازال قِدْماً ... ناثراً في مديحك العبدُ ناظم
بقوافٍ على عِداك عوادٍ ... يافَدْتك العدى ووجُهك سالم

عاتكة الخزرجي

اهم مصادر البحث

أبو العلاء المعري — شرح التنوير على سقط الزند — مصر ١٣٥٨
الأخـــرس — الطراز الانفس في شعر الأخرس (الديوان) — ١٣٠٤
الاداب العربية في القرن التاسع عشر — بيروت ط٢ : ١٩٢٦
البحتري — ديوان البحتري — بيروت ١٩١١
جرجي زيدان — مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر — ط٢ مصر ١٩١١
جلال الخياط — الشعر العراقي الحديث — بغداد ١٩٧٠
داود سلوم — تطور الفكرة والاسلوب
ديوان الأخرس — مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي على مايكروفيلم
للدكتور يوسف عز الدين — ٢٦٩ —ق٢ / م
رضا وظاهر زين — العراقيات — صيدا ١٣٣١
الزركلي — ط٢ مجلد ٤ص ١٥٧
سليمان صائغ الموصلي — تاريخ الموصل — مصر ١٩٢٣
الشريف الرضي — ديوان الشريف — بيروت ١٣٠٩
عباس العزاوي — مجموعة عبد الغفار الاخرس — بغداد ١٩٤٩
عبد الكريم الدجيلي — محاضرات عن الشعر العراقي الحديث — ١٩٥٩
محمد مهدي البصير — نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر — بغداد ١٩٤٦
محمود شكري الالوسي — المسك الاذفر — بغداد ١٩٣٠
المشرق — مجلد ١١ ص ٧٧٩
يوسف سركيس — معجم المطبوعات العربية والمصرية — مصر ١٩٢٨
يوسف عز الدين — مخطوطة شعر الأخرس — بغداد ١٩٦٣
الشعر العراقي اهدافه وخصائصه — بغداد ١٩٥٧

المخطوطات

١ — مخطوطة المجمع العلمي العراقي المرقمة ٦١٤— ق٢ / م
٢ — مخطوطة المجمع العلمي العراقي المرقمة ٦١٩
وهي قصيدة واحدة للأخرس في مدح علي باشا
٣ — مخطوطة مكتبة مديرية الأوقاف العامة بغداد رقم ٥٧٦٤